أبعد من ذلك ، فيقولون إن تأثر تفكيرنا بوضعنا الاجتماعى لا يعنى بالضرورة أن يجىء هذا التفكير خاطئاً ، وإنما قد يكون هذا التأثر نفسه سبيلنا إلى بلوغ حَدْس سياسىّ صائب ومن هنا فإن العنصر الهامّ فى مفهوم « الإيديولوجيا » عندهم إنما هو هذا الكشف الجوهرىّ لوجود علاقة وثيقة بين التفكير السياسىّ والحياة الاجتماعية . ولعل هذا ما عناه ماركس حينما قال عبارته المشهورة : « إنه ليس وَعْى الناس هو الذى يُحدِّد وجودَهم ، بل — على العكس — إن وجودهم الاجتماعىّ هو الذى يحدّد وعيهم[1] . » فالنظرية دالّة Function للواقع ، وهى تؤدى إلى تحقيق ضرب خاص من الفعل ، يجىء فيعدِّل من الواقع ، أو هو قد يفشل ، فيضطرنا إلى معاودة النظر فى النظرية السابقة . والتغيّر الذى يطرأ على الموقف الحالىّ نتيجة للفِعْل ، لا بُدَّ — بدوره — أن يُولِّدَ نظرية جديدة .

... من هذا كله يتبيَّن لنا أن « الإيديولوجيات » هى « مركّبات أفكار » توجّه النشاط نحو المحافظة على بقاء النظام القائم . وقد يقع فى ظننا أن الأفكار تتولد بطريقة تلقائية ، ولكن الحقيقة — فيما يقول كارل مانهايم — إن الأفكار تتوقف توقفاً تاما على السياق التاريخىّ والاجتماعى . وتبعاً لذلك ، فإنه ليس المهمّ أنْ نعمد إلى دراسة الفكر المجرَّد ، أو العقل الخالص ، بل المهمّ بالأحرى أن نقف على الظروف الاجتماعية الفعلية التى عملت على ظهور هذا التفكير أو ذلك الإنتاج العقلىّ . وإذا كان من الحق أننا ننتسب إلى جماعة بعينها ، فما ذلك لمجرَّد أننا وُلِدْنا فى كَنَفِها ، أو لمجرَّد أننا ندين بالطاعة والولاء لها ، أو لمجرَّد أننا حريصون على التمسُّك بها والدفاع عنها ، وإنما بالأحرى لأننا نرى العالم وما فيه من أشياء على نحو ما تراه تلك الجماعة ، أعنى أننا نستخدم فى إدراكه نفس المعانى أو الدلالات التى تستخدمها تلك الجماعة فى إدراكه[2] .

والواقع أن أى مفهوم جزئى ، بل أى معنى خاص ، إنما ينطوى على « بَلْورة » لخبرات جماعة بعينها ، ومن هذه الناحية قد يكون أهَم شىء يمكن أن نعرفه عن هذا الشخص أو ذاك ، إنما هو تلك الأمور التى يَعُدُّها طبيعيَّة عاديةً ، أو تلك المسائل التى يُسلِّم بها ضمْنا دونَ أدنى فحص أو مناقشة . وبالمثل قد يكون أكثر الحقائق أهمية وأوّلية بالنسبة إلى أية جماعة ، إنما هى على وجه التحديد تلك الوقائع التى تعَدُّها الجماعة سويَّةً مألوفة ، أو

---

(١) K. Marx « A Contribution to the Critique of PoliticalEconomy. », Trans. 12

يتحدث لا يؤكدها صراحة... فهو المشكوك في أمره، الذي يمكن إثباته ولكن دون برهان كاف، وتاليا، ما يمكن اعتباره كأنه بقي معلقا"[2].

والإشكالية (problematique)، صفة لكلمة مشكلة (probleme)، وهي أوسع من المشكلة، إنها نظرية تقدم لها عدة حلول، وليس هنالك حل يمتلك من القوة ما يزيح باقي الحلول المطروحة، في حين تعني كلمة "مشكلة" في اللغة اليونانية "الصعوبة، أو العقبة، أو العثرة، أي ما هو موضوع أمام الإنسان يقابله ويصطدم به"[3]، فإذا ما تعاملنا مع كلمة "إشكالية"، باعتبارها صفة لكلمة "مشكلة"، حينئذ تكون دلالتها ومجال استعمالها هو مجال المنطق، وتحديداً ما يسمى الجهة في الأحكام، وذلك كون القضية قولاً مركب من حدين مرتبطين برابطة، فنقول: إن القضايا من ناحية الجهة، تنقسم إلى قضايا تقريرية، وصفة الحكم فيها هي "من المحقق كذا"، وقضايا احتمالية وصفة الحكم فيها "من المحتمل كذا"، وقضايا ضرورية وصفة الحكم فيها "من الضروري كذا"[4]، وهذا المستوى من الفهم، سنعمل على تجاوزه، كونه اقرب إلى الدلالة اللغوية والمنطقية منه إلى الدلالة الاصطلاحية.

أما في المصطلح المعاصر، فتستعمل كلمة "الإشكالية" بوصفها إسم لكلمة "مشكلة"، وحينئذ يكون معناها مجموع المشكلات الخاصة بعلم من العلوم، أو مجموع المشاكل التي توجد ضرورة في مسألة من المسائل[5]، ففي الفيزياء، مثلا، توجد عدة مشكلات، يحاول العلماء إيجاد حلول لها والسيطرة عليها من خلال ملاحظتها وإعطاء فرضيات حولها، ومن

---

(2) اندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية...